ملتقى النهرين

قصة بقلم دريد الأمير

كانت يد « انتصار » تمسك مقود السيارة بقوة اشبه بقوة الرجال. فلت لهـا ذلك وانا اعلق على قولها « ان لـم يكن ذا حس وطني نضالي فلا يمكن ان أفكر بالعيش معه » لم اجد غير هذا القوله في تلك اللحظة .

انا ادري ان ما قلته ليس رداً ولا تعليقا على كلامها ، ولكن لانني كنت مؤمنة تماما بما تقوله ، ولانني ظننت اني لا اريد تشجيعها علـى الايمان به قلت لها ما قلت .

لم تجبني « انتصار » . كنت أجلس على المقعد الخلفي من السيارة وبجواري « يسرى » سارحة في الماضي الحاضر او الحاضر الماضي ، فالازمنة مختلطة دائما في ذهنها . اما « ناهدة » الجالسة بجوارهـا فكانت ترخي رأسها على ظهر المقعد وتغمض عينيها المحملتين بالكحـل الكثيف .

فتحت عينيها فجأة كانما احست بنظراتي تغبطها وتثاببت ببطء ثم عادت تغمضهما وهي تتمتم :

ـ انا لا أفهم القضايا السياسية ولا اريد أن افهم عنها شيئا . يقولون ان هناك أحزابا ، ولكني لا اعرف حتى اسماءها .

فاجابت اخت انتصار الجالسة بجوارها :

ـ أنـا مثلك .

كنت ادري ان الاخت تكذب فاجبت :

ـ الذكية الوحيدة في هذه السيارة هي ناهدة . فمـن يعرف الحقيقة عن الاحزاب حتى في أسمائها ؟؟

لم تفكر « ناهدة » بالتعليق بل تثاءبت ثانية وفتحت عينا واحـدة حكت جفنها الاعلى باحتراس شديد لئلا ينزاح خيط الكحل عن مكانه . وعدت اتأمل عينيها وكحلهما ووجدت « يسرى » تنفرس فـي بعينين صامدتين لجبال الهموم وقالت بصراحة :

ـ انتصار انسانة جيدة لا يصح ان تتزوج الا انسانا جيدا .

لكزتها بكوعي فسكتت . ادارت آخت انتصار مفتاح المذياع جالت به على المحطات ، وحين لم تجد أغنية عربية اسكتته ، واذ بناهدة تسأل وعيناها المكحلتان لا تزالان مغمضتين :

ـ انا احب الجيتار ، عودي بنا الى المحطة التي كانت تعزفه .

قلت :

ـ الجيتار لا يبكي احدا منا ، فلم نستمع اليه ؟

اوقفت انتصار السيارة والتفت الكل صوبي حتـى ناهدة فتحت عينيها . أجبتهن قبل أن يسألنني :

ـ نعم كلنا نريد ان نبكي .

فلزمن الصمت . اضفت :

ـ آذن فلأكن اكثر جرأة منكن . انا احتاج البكاء . احتاجه ما دمت لا استطيع امتلاك قنبلة ذرية ولا استطيع تغييـر مجـرى التاريخ ولا استطيع استبدال ما في نفسي .

كانت السيارة التي امامنا قد وقفت ونزل منها الرجال الثلاثـة . « روني » صديق ناهدة وصديق له قصير القامة والثالث المرشح للزواج بصديقتنا انتصار . كان الاخير طويلا انيقا وسيما مؤدب التصرفات . أحنى رأسه تحية لنا . كان يفعل هذا كلما وقفت السيارة ونزل منهـا الرجال الثلاثة قبل مواصلة الطريق الى دعوة الغداء التي ستقام فـي مقهى « ملتقى النهرين » والتي سيتعارف فيها انتصار والمرشح للزواج بهـا .

احنت صديقتنا رأسها ردا لتحيته ، وكنت اتمنى لـو أرى وجهها وما يرتسم عليه : أهو حيرة أم استكانة ؟ انها حاليا واضحة لنصائحنا الملحه بالا تسرع في الرفض وان تدرس الرجل جيدا ، والا تضع الحس النضالي التقدمي مقياسا لجودة الرجال ، وان تفكر بان الزواج هـو غير العمل الحزبي والسياسي وان الاستقرار مع زوج يلتزم بواجباتـه يبعده الفصل من مناضل يتعرض كل يوم للتشريد والسجن . كنت أقول لها هذا بصورة آلية بعد أن أمضيت نهارا كاملا امرن لساني على عبارات مؤثرة قد تجد استجابة عندها . نظرت الي اخت انتصار نظـرة امتنان وقالت :

ـ أقسم بالله أن لا احد يدرك أمور الحياة (أدراكا) جيدا غيرك. ولكن محاضراتي ونصائحي وحكمي ذهبت كلها هباء حين علقت يسرى:

ـ لو كانت المواعظة تؤمن بصحة كلامها ...

لكزتها بكوعي ، فصاحت بأعلى صوت يمكن أن يصدر عنها :

ـ لن أسكت .. ان اسكت ولا اريدك ان تكذبي على نفسك ..

سألت آخت انتصار أن تفتش لنا عن أغنية عربية فادارت مفتاح المذياع واختلطت أصواته المتباينة مع صوت يسرى .. ثم علت قهقهـة أخت انتصار :

ـ « كل الاذاعات متآمرة عليك ومتحالفة على عدم ابكائك » .

وقفت سيارتنا نتيجة لوقوف السيارة التي أمامنا ونزل منها روني وجاء صوبنا متأملا وجه ناهدة النائم ثم تبسم . كانت اسنانه بشعـة وتجاعيد عوجاء ترتسم حول عينيه وشعر رأسه يحتاج الى جـز عميق . فتح باب السيارة فاستيقظت ناهدة ونهضت وخرجت تمشي كالمنـوم تنويما مغناطيسيا تمسك بيد روني المحتاجة الى حمام عربي .

كانت المناظر حولنا متعبة بالجمال ، وكل واحدة منا تجلس فـي السيارة وهي ليست فيها . اغمضت عيني واتكأت على ظهـر المقعد . قالت يسرى :

ـ لن تفتحي عينيك على يد تمسك بك تقودك ..

اردفت اخت انتصار :

ـ الا اذا كانت يد عروبي يمسك قضية بايد الاخرى !

ثم صمتت فجأة . فتبسمت وادركت انها اكتشفت متاخرة انهـا قالت اكثر مما يجب ، وسمعت صوت انتصار يقول :

أكملي يا اختي لا تظنيني مغفلة الى هذا الحد .

واذ بيسرى تقول لانتصار :

ـ أذهبي ... اذهبي اليه واخبريه انك تحبينه وأن قربه منـك لا يتعارض وخدمة القضية وانه لـن يستطيع تحمل اعبائها الا اذا كان مسنودا عاطفيا . هذا القلق الوجداني يعرقل كل شيء ويجعل الحياة جبل هموم .

لم اصدق اذني .. يسرى الصلدة ـ المتماسكة ـ التي لا تعترف بالعواطف ولا تؤمن الا بوجود قضية يحلها العقل تقول هذا ؟!

قلت لها : انت ! انت !!! تقولين هذا ؟؟

أجابت : نعم انا التي اقوله .. لا لاني مؤمنـة بالعواطف مثـل ايمانكم بها ولكن لاني ادري تماما ان القضية لا تخدم الا في جو نفسي مطمئن ومستقر .

كانت انتصار ساكتة طوال فترة نقاشنا واذا بها تقاطعنا وهـي سارحـة :

ـ أترضين لي يا يسرى ان اذل نفسي واهين كبريائي ؟ لم لا يخطو هو هذه الخطوة ؟

اجابت يسرى : لا كرامة في موضوع العواطف لان البادىء في المصالحة هو صاحب الفضل ، وما فائدة أن يحتفظ الفرد بكبريائه وهو تعس غريب ؟؟

عادت انتصار تواصل حديث احلامها :

ـ قرأت في الصحف أعلانا يطلبون فيه مدرسات لبلد من بلدان شمال افريقيا . سأذهب الى هناك وابدأ حياتي بمفهومات جديدة .

أجبتها :

ـ لن يتغير عليك شيء فتلك ايضا بلاد عربية .

عادت ناهدة وقد تشابكت ذراعاها بذراعي رونـي ... وعادت السيارتان للسير بمحاذاة النهر في طريقهما الى « ملتقى النهرين » . لزمنا كلنا الصمت وكذلك فعل المذياع ، واصغيت للصمت الذي كان ممزوجا بصوت محرك السيارة . مررنا على اراض مرتفعة فعلا . وكان هدير المياه منصبا بقوة ، ثم انبسطت الارض فلم اسمع خرير الانسياب.

وبين سماعي للهدير وأملي بان أسمع الخرير وجدت اننا وقفنا والكل ينزل وانا معهم .

كنت التقي بالمرشح للزواج بانتصار للمرة الاولى ، وفهمت من الاحاديث انه تاجر ، ولكن لم أعرف تماما حقل تجارته . كان متحمسا للقضايا السياسية بانعكاساتها على الحالة الاقتصادية ، وكان يحمل اهل السياسة والعقائديين والاحزاب اسباب تدهور الوضع المالي ويعتب على من يعيب على التجار مادتهم وهم عرق الحياة الحساس ، على حد تعبيره ، ويقهقه وهو يقول : « ما رأيكم بالمرأة التي تهتم بالسياسة ؟ اليس خيرا لها ان تهتم برجلها ؟ يجب أن يكون هو عالمها . وقضيتها الوطنية هي التفتيش عنه . ما نفع نضالها الخارجي اذا كانت حياتها الخاصة فارغة ؟ عملها الوطني لا يملأ هذا الفراغ مهما كانت ملزمة » .

لم اعجب لاحاديث التاجر ، فقد سبق وسمعتها من كثيرين ، ولكن الذي أثار تعجبي وتساؤلي ودهشتي ورود امكانية عقد زواج بين انتصار والتاجر المتحمس . وأثار اشمئزازي الطريقة التي رسمت لالتقائهما كونه تاجرا لا يبيح له عقد صفقات بين النفوس . ولكن اهو المخطيء الوحيد ؟؟

انقطعت عن الاصغاء وبدأ ذهني يدور ويجول يفتش عن الشخص الذي قام بالترشيح لهذه الفكرة .

سمعت نفسي اضحك بصوت عال ولا أحد ينظر الي وأنا أتطلع الى ناهدة واعجب لغبائي .

تتبعت نظراتها وهي تفرق عينيها بوله في وجه رونـي . لا تسمع ولا ترى الا اياه . ولا يثير أي أمر أي تساؤل في نفسها . الرضا والاطمئنان والسعادة والاستقرار كلها واضحة على وجهها . وتساءلت : ماذا يفعل الفرد ليحس احاسيسها ؟ هل يستطيع ان يوحي الى نفسه بهذا واعماقه امواج تتلاطم ؟ اين هو الشاطىء الامين ليتوجه اليه ؟

واخرجتني رتابة الخرير عن الجو واحاديثه وارتحت لهذا الخروج .. ولكن ما اسمعه لم يكن صوت ماء ينساب ، كان هناك هدير عال . شلالان قويان يلتقيان في مصب واحد ومقهانا يشرف على هذه الصورة أكثر من بقية المقاهي المتناثرة .

قمت الى الملتقى حيث يصب ما سمي بالنهرين . كان الشلال الاول يهبط بقوة وعنف ويريد الاجتياح ، والثاني قوي وعنيف ومجتاح . نقلت بصري بين الشلالين فلم أستطع اكتشاف الاقوى ، ولكن الشلالين القويين المدفعين المجتاحين الملتقيين بكل عنفهما يتحولان تدريجيا الى نهر واحد واسع هادىء صاف أو ينساب بخرير رضى ...

بيت الانسان يتعلم من الانهار حلمها وحكمتها وذكاءها فلا يتحول لقاء صاحبي رأيين مختلفين الى شر هدام .

لم يطل انتظاري لتحقيق هذه الامنية فحين عدت الى مجلسنا وسلني صوت جديد . صوت متحمس مملوء بعبارات الاعجاب والفاظ التأييد . كل كلمات الرضا التام كانت تصدر من شفتي وفم واعماق صديقتنا انتصار موجهة للتاجر المتحمس لتجارته والمرشح للزواج بها . كانت العبارات تصدر عنها وتطرق سمعي فلا أصدق أذني . تأملت عينيها ، كانتا مشرقتين بحماسة . اصابع يدها تواصل الحركة بتأييد. قدماها ثابتتان . فركت عيني فعاد نفس المنظر ، لمست اذني فتأكد لي صحة ما اسمع .

ادرت بصري في الحضور . كان اخت انتصار يرتسم على وجهها كل الانتصار ، وكانت يسرى تميل بوجهها تتأمل تدفق الملتقى .

اما سهام وروني فلا يزالان في عالمهما . وكان صديقهما القصير القامة يضحك لا ادري لمن ! ولم ؟

كدت أصرخ في الحضور : الانسان ليس نهرا يستطيع تغيير مجراه بهذه السهولة . انه ليس شلالا يلتقي بغيره فيجد فيه خدنا . ولعلي تفوهت بهذا ولكن لم يسمعني احد . كنت لا أزال واقفة . ليس من كرسي فارغ اجلس عليه لا ارى احدا ممن اعرف . ودون استئذان او تحية انثنيت لاذهب ، ولكني وجدت نفسي اعود واسير نحو ناهدة أمد لها كلتا يدي اصافحها واشد على يدها بقوة ..

ديزي الامير

صدر حديثا

الأدب المسؤول

لفقيد الادب اللبناني والعربي

رئيف خوري

دراسات رائعة يمكن اعتبارها أجمل ما كتب الاديب الراحل ، معالجا فيها مختلف المشكلات الثقافية ، متناولا عددا هاما من الكتب الادبية بالنقد والتحليل بروح عميقة ونكتة لاذعة . كما ان الكتاب يضم نص المناظرة الشهيرة التي اجراها الفقيد مع الدكتور طه حسين في موضوع « لمن يكتب الاديب ، للخاصة ام للكافة ؟ »

منشورات دار الآداب